السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر

(من عام ٤٩٢ -٥٨٤ هـ/ ١٠٩٩-١١٨٨ م)

دراسة في التاريخ العسكري والاقتصادي

أ. د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي
قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

خلال بحثي في مصادر الحروب الصليبية ومراجعها لفت انتباهي تركيز مؤرخي هذه الحقبة - في أعمالهم العلمية - على الكيانات الصليبية في فلسطين على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، أو في الداخل من القدس جنوبا إلى أنطاكية والرها شمالا، أما ما يتعلق بشرق نهر الأردن وخليج العقبة فقليل، ولعل السبب يكمن في أن البحر الأحمر لم يكن ذا أهمية عسكرية للفرنج، فالمدد كان يأتي من أوروبا، كما أن خط الرجعة باتجاه الساحل إلى أوروبا، بينما البحر الأحمر كان - بنظر الفرنج - بحيرة إسلامية مغلقة. ورغم هذا فقد تعامل الفرنج مع منطقة البحر الأحمر بحذر من خلال استراتيجية عسكرية وتجارية بدأت بالتوسع برا في المنطقة المحصورة بين البحر الأحمر وخليج العقبة، ثم التوسع بحرا عبر بناء القلاع البحرية، وعمليات القرصنة. وسوف نختار مصطلح "الفرنج" (Francs) للدلالة على الصليبيين الذين استعمروا الشام وفلسطين قرنين من الزمان (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٧-١٢٩١م)؛ لأنه الاسم الذي تداوله مؤرخو تلك الفترة من المسلمين. ويمكن تقسيم التمهيد إلى جغرافية البحر الأحمر، والمحاولات الأوروبية القديمة لغزوه:

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون
الدارة

أولا: جغرافية البحر الأحمر

تبدأ فترة البحث من سقوط القدس، وتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وتنتهي باستعادة صلاح الدين حصن الكرك وقلاع شرق الأردن ووادي موسى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

ويشمل الموضوع مكانيا المنطقة الواقعة شرق البحر الميت، وجنوبه إلى خليج العقبة، والبحر الأحمر الذي يشكل حوضا طويلا وضيقا مساحته ١٨٧,٠٠٠ ميل مربع، ويقع بين خطي عرض ١٢ و ٣٦، ويبلغ طوله من باب المندب إلى مدخل خليج السويس ١٣٨٠ ميلا. وأكبر اتساع له ١٩٠ ميلا بين مصوع على شاطئ أريتريا وجازان. ويضيق في باب المندب الذي لا يتجاوز عرضه ٢٠ ميلا. وتتناثر في هذا البحر ٣٧٩ جزيرة معظمها جزر صغيرة تكثر كلما اتجهنا جنوبا.

ويتفرع البحر الأحمر في الشمال إلى ذراعين: شمالي شرقي وهو خليج العقبة الذي كان يعرف قديما "خليج أيلة"، ويقع بين خطي عرض ٢٨ و ٢٩ شمالا، وطوله ١١٠ أميال، ويتراوح عرضه بين ٨ أميال عند مدخله و١٢ ميلا في الشمال، و١٧ ميلا في الوسط. وتقع في مدخله جزر تيران وصنافر، وبينها ثلاثة ممرات، اثنان منها لا يصلحان للملاحة لضحالة مياههما، وأما الثالث فهو صالح للملاحة، ويقع بين ساحل سيناء وجزيرة تيران وعرضه ٣ أميال. ويمكن تقدير المسافة بين العقبة وباب المندب بنحو ١٤٩٠ ميلا.

أما الذراع الشمالي الغربي للبحر الأحمر فهو خليج السويس الذي يسمى قديما "خليج القلزم" ويقع بين خطي عرض ٢٧ و ٢٩ شمالا وطوله ٢٠٠ ميل. ومتوسط عرضه ٢٠ ميلا وعرضه عند مدخله ١٨ ميلا[١].

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي- الإسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٩٤م، ص ٢٧- ٣٠، ولتحديد بعض المواضع انظر الخريطة رقم (٢).

والبحر الأحمر بمثابة أخدود يفصل بين قارتي آسيا وأفريقيا، وقد وصف بالأحمر اختصارا لاسمه القديم " بحر الملك الأحمر (Erythraean)"، أو لأن مياهه تبدو حمراء انعكاسا للون الجبال المطلة عليه، أو بسبب لون الطحالب التي تطفو فوق مياهه. وتكثر في هذا البحر الشعاب المرجانية، والصخور الناتئة إضافة إلى الأمواج العاتية، والدوامات العنيفة، والعواصف الهوجاء؛ مما يجعل الإبحار فيه صعبا وبخاصة على من يرتاده من غير أهله(٢).

وهو بحر حضاري قامت على سواحله الغربية والشرقية حضارات قديمة فرعونية وعربية، فقد اتخذ الفراعنة البحر الأحمر معبرا لسفنهم لجلب البخور والكافور والقرفة واللبان من الصومال واليمن إلى مصر، وقد خلدت نقوش جدران الدير البحري بالأقصر البعثة البحرية التي أرسلتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م) إلى الصومال. واهتمت الأسرة السادسة والعشرون بشؤون الملاحة في البحر الأحمر، حيث بنى نيكاو بن أبسماتيك (٦١٠-٥٩٥ ق.م) سفينة كبيرة وعين عليها بحارة من الفينيقيين الذين كان لهم نشاط في هذا البحر. أما العرب فكانوا سادة التجارة مع الهند، ومحتكري تجارة البخور والتوابل الأمر الذي جعلهم في صراع مع المستعمرين الأوروبيين من اليونان والرومان والبيزنطيين(٣).

ودخل الفرس طرفا في الصراع على البحر الأحمر، وبخاصة إبان فترة استعمارهم مصر (٥٢٥-٣٣٢ق.م)؛ ففي عام ٥١٠ ق.م أرسل

(٢) السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،١٩٩٣م، ص٤. عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ٢.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المرجع المذكور، ص ٥-٦. عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، ص٢٠. محمد السيد غلاب، التجارة في عصر ما قبل الإسلام (بحث: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م: ص١٨٩-٢٠٠)، ص١٩١.

دارا الأول ملك الفرس (٥٢١-٤٨٥ ق.م)[٤] بعثة بقيادة بحار يوناني يدعى سيلاكس (Scylax)؛ ليطوف سواحل بلاد العرب من الخليج شرقا إلى خليج السويس غربا، وقد أنهى رحلته هذه في عامين ونصف، وترك وصفا لها اعتمد عليه إلى مجيء الإسكندر المقدوني إلى الشرق عام ٣٣٢ق.م، حيث شاع لدى الأوروبيين اسم البحر الأحمر وتردد في أعمال شعرية ومسرحية في أثينا قبل الميلاد[٥].

ثانيا: المحاولات الأوروبية القديمة لغزو البحر الأحمر

(أ) المحاولات اليونانية:

احتكر العرب الجنوبيون تجارة "البخور والتوابل" المحلية، والمجلوبة من سيلان والهند إلى ميناء عدن، ثم إلى موانئ الحجاز؛ ليتولى العرب الشماليون"الأنباط" نقلها برا إلى عاصمتهم البتراء حيث تتفرع ثلاثة طرق تجارية: طريق إلى مصر وآخر إلى فلسطين وفينيقية عبر بئر "سبع" وثالث إلى دمشق[٦]. وحيث إن البضائع التي تصل إلى أوروبا تكون قد مرت من مصدرها إلى أول ميناء أوروبي بأكثر من سوق عربي فإن أسعارها تتضاعف أضعافا كثيرة؛ الأمر الذي حدا بالأوربيين إلى التفكير في كسر الاحتكار العربي للتجارة مع الهند. ويقال: إن الإسكندر المقدوني عندما بلغ مشارف الجزيرة العربية أحجم عن غزوها من ناحية الصحراء، ففكر في غزوها

(٤) اسمه " دارايا فاهوش"، كان ذا سياسة حربية وإدارية وتنظيمية، ولقب بالملك العظيم. اهتم بالملاحة بين فارس ومصر عبر البحر الأحمر. هزم جيشه في معركة ماراثون قرب أثينا عام ٤٩٠ق.م. انظر عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم الجزء الأول: مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠م، جـ ١، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٥) سيد أحمد الناصري، الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة (بحث: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م: ص٤٠١ -٤٢٨)، ص ٤٠٥ .

(٦) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص ٤٧٠-٤٧١ .

بحرا بأسطول يطوف حول شواطئها الشرقية والجنوبية والغربية طمعا في احتلالها والاستيلاء على ثروات العرب، واتخاذ موانئهم نقاط تمركز لأساطيله نحو المحيط الهندي. فأمر بجلب أخشاب من قبرص وفينيقية لبناء أسطول بحري في بابل، وأرسل بعثات استكشافية كتلك التي أرسلها بقيادة أرخياس (Archias) الذي بلغ البحرين. وكان أقصى مكان وصلته سفن الإسكندر سواحل حضرموت، وكان ينوي الإبحار بنفسه لولا أنه مات في بابل عام ٣٢٣ ق.م[٧].

ولكن المشروع اليوناني لغزو البحر الأحمر لم يمت بموت الإسكندر، فقد تبنى ذلك خلفاؤه البطالمة في مصر (٣٣١-٣٠ق.م)، وحاولوا تحويله إلى بحيرة بطلمية، بل أصبح البحر الأحمر محور تجارتهم؛ فأقاموا موانئ لهم على امتداد الشاطئ المصري المطل عليه، ففي عام ٢٧٥ ق.م، أنشأ بطليميوس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥-٢٤٦ق.م)، ميناء برنيقي Bernice (الهراس حاليا)، وميناء ميوس هرموس Hermos Myos (أبو شعر القبلي قرب سفاجة)، وأصلح ميناء ليكوس ليمون (القصير الحالي). كما أرسل فيلادلفيوس بعثة بقيادة أرسطو (Aristo) لاستكشاف ساحل الجزيرة العربية من العقبة إلى باب المندب لفتح طريق تجاري بين سبأ والسويس، وتمكن أرسطو من الاستيلاء على ميناء ديدان "العلا" حوالي سنة ٢٧٧ ق.م[٨].

وبلغ الاهتمام البطلمي في البحر الأحمر أشده في عهد بطليميوس يورجيتيس الثاني II Eurgetes (١٨٢-١١٦ ق.م) الذي أمر

(٧) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد، ط١، ١٩٦٩م، جـ ٢، ص ٦-٧. انظر: سيد أحمد الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ٥٥٣-٥٥٤ .

(٨) عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٢٠-٢١؛ سيد أحمد الناصري، الصراع على البحر الأحمر، ص ٤٠٨.

ببناء سفن ذات طوابق تجوب سواحل البحر الأحمر، الأمر الذي أثار مخاوف العرب الأنباط، وعدّوا تحركات السفن البطلمية تهديدا لمصالحهم التجارية، فوقعت معركة بحرية بين الجانبين عام ٢٧٧ق.م انتصر فيها الأسطول البطلمي؛ مما شجع الملك البطلمي على بعث قائده البحري يودوكسوس (Eudoxos) لاكتشاف طريق عدن- الهند، وقام بهذه الرحلة مرتين عاد فيهما ببضائع هندية[٩].

ظل العرب الأنباط يراقبون الأسطول البطلمي، ويرقبون فرصا للثأر من هزيمتهم؛ حتى إذا أنس الحارث الثالث ملك الأنباط (٨٧-٦٢ ق.م)[١٠] ضعفا في الدولة البطلمية قام بمهاجمة سفنها، وأنشأ ميناء الحوراء[١١] (Kome Leuke) ليوكي كومي، وربطه بطريق القوافل مع يثرب[١٢]. غير أن البطالمة عادوا إلى قوتهم، وأسسوا لهم محطات تجارية على طول ساحل البحر الأحمر، بما في ذلك ميناء أيلة "العقبة"، وبخاصة بعد أن توصل البحار اليوناني هيبالوس (Hippalus) إلى سر البحارة العرب في ذهابهم إلى الهند وإيابهم منها، وذلك من خلال تحديد أوقات هبوب الرياح الموسمية الغربية والشرقية، فصارت السفن البطلمية تغادر شواطئ مصر في تموز يوليو لتسيرها الرياح إلى خارج البحر الأحمر، وفي أغسطس تحركها

(٩) سيد أحمد الناصري، الرومان والبحر الأحمر (بحث: الدّارة، العدد ١٩٨١،٦م. ص٨-٥٠)، ص ١٨، ٤٢٠ .

(١٠) عرف الحارث الثالث بـ" فيلهيلن Philhellen" أي محب اليونان، ومع ذلك فقد اصطدم بالسليوكيين اليونان في سوريا، وهزمهم سنة ٨٦ ق.م، واستولى على دمشق. وهاجم مملكة يهوذا، وحاصر القدس. وبلغت مملكة الأنباط في عهده أكبر توسعها. انظر: جواد علي، المرجع السابق، جـ ٣، ص٢٩-٣٣.

(١١) الحوراء بليدة على ساحل وادي القرى، بها مسجد جامع وثماني آبار عذبة، ونخل، وأهلها عرب من جهينة وبلي. (الحميري، محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي ت ٧٢٧هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط١٩٨٤،٢م، ص٢٠٥)، وقد ذكر جواد علي أن الحوراء هي ميناء ينبع حاليا(جواد علي، المرجع السابق، جـ ٢ ص ٤٦).

(١٢) سيد أحمد الناصري،المرجع السابق، ص١٩

الرياح الموسمية الصيفية لتصل الهند بعد أربعين يوما. ويبدو أن بطلميوس الحادي عشر "الزمار" (٨٠-٥١ ق.م) قد أدرك أهمية وجود محطة في منتصف الطريق لتوقف سفنهم التجارية بعيدا عن موانئ العرب، فأرسل مستعمرين يونانيين إلى جزيرة سقطرى(١٣) فعسكروا فيها(١٤).

(ب) المحاولات الرومانية والبيزنطية:

بعد أن استعمر الرومان مصر عام ٣٠ق.م، اهتم أغسطس أوكتافيانوس Octavianus Augustus(١٥) في السيطرة على البحر الأحمر بصفته طريق التجارة الدولي مع الهند، فأمر واليه على مصر اليوس جالوس Aelius Gallus (٢٦-٢٤ق.م) بغزو السواحل العربية المطلة على البحر الأحمر، واحتلال اليمن، فجهز اليوس حملة بحرية من عشرة آلاف جندي، وأمده عبادة الثالث ملك الأنباط (٣٠-٩ق.م)(١٦) بألف جندي وعدد من الأدلاء يقودهم وزيره صالح الذي كان يدرك الهدف الاقتصادي للحملة الرومانية، فسلك بها مجاهل ومفاوز حتى يضمن إخفاقها، وأسهم الملك اليهودي

---

(١٣) سُقطرى بضم أوله وثانيه، وسكون طائه، وراء، وألف مقصورة. وروي سقطراء بالمد. جزيرة كبيرة في المحيط الهندي تتبع اليمن، يقول ياقوت: إن الإسكندر أسكن فيها جماعة من اليونانيين قدمت إليها عبر البحر الأحمر، ولما ظهر المسيح تنصرت هذه الجماعة، وظلت محتفظة بنسبها اليوناني. انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د. ت، جـ ٣، ص ٢٢٧).

(١٤) نقولا زيادة، دليل البحر الأرثري وتجارة الجزيرة العربية البحرية (بحث: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م: ص٢٥٩-٢٧٧)، ص ٢٦١ . محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص١٩٣. جواد علي، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٦-٢٧.

(١٥) ولد أغسطس أوكتافيانوس عام ٦٣ ق. م في روما، وحصل على لقب أوكتافيانوس وسنه تسع عشرة سنة، وعلى لقب أغسطس عام ٢٧ق. م. مات سنة ١٤ق.م.

(Larousse,France Loisirs, Paris,1972T.2,p.696)

(١٦) يعرف بالمصادر الرومانية باسم "Obodas"، كان ضعيفا، ترك الأمور بيد وزيره صالح. دخل في صراع مع الملك هيرودس الذي هاجم عرب الصحراء (جواد علي، المرجع السابق، جـ ٣، ص ٣٨-٣٩).

هيرودس الكبير (٣٧ - ٤ ق.م) بخمسمئة يهودي، وتكون الأسطول الروماني من (٨٠) بارجة، و (١٣٠) سفينة حربية أقلعت نهاية عام (٢٥ ق.م)، ووصلت الحملة بعد خمسة عشر يوما إلى الحوراء. ثم سارت برا مستهل عام ٢٤ ق.م، وبلغ اليوس مأرب بعد ستة أشهر، ولكنه فشل في احتلالها وعانى هو وجيشه من مشقة الطريق وقساوة المناخ، ومقاومة الأهالي؛ فعاد إلى ميناء الجار[١٧] وركب البحر إلى مصر واستغرقت رحلة العودة ستين يوما. ولم يحقق الغزو أهدافه العسكرية والتجارية بالسيطرة على اليمن، واحتكار تجارة المر واللبان والبخور، فاضطر الرومان إلى مصانعة ملوك اليمن[١٨]. ويعلل "فيليب حتّى" فشل هذه الحملة الرومانية بما قام به الوزير النبطي صالح الذي ضلل القائد الروماني، وسلك به طرقا وعرة وسط أجواء حارة[١٩].

ولكن من المحتمل أن يكون الملك "عبادة" قد أظهر للبطالمة تأييده لمشروعهم الاستعماري خوفا من توجه الحملة إلى "أيلة" والقضاء على دولته في البتراء، وفي الوقت نفسه أوعز لوزيره بأن يسير بالغزاة برا لمسافة طويلة تتجاوز ألف ميل؛ لضمان عدم تحقيق أهدافها التجارية التي تهدد مصالح الأنباط، ولو سار القائد الروماني بحرا لنجح في احتلال عدن. وقد تكون أزمة الثقة بين الملك

(١٧) تقع آثار ميناء الجار على بعد ١٠ كم شرق قرية الرايس، وعلى بعد ١٥٠ كم جنوب غربي المدينة، وكان يعد منفذا لها، ترسو فيه السفن القادمة من مصر والحبشة واليمن. انظر: محمد أحمد بدين، عبد الرحمن بكر كباوي، دراسات في آثار المملكة العربية السعودية المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض،١٩٩٢م، جـ ١، ص ٧٩ .

(١٨) السيد عبدالعزيز سالم، البحر الأحمر، ص٦-٧ . سيد أحمد الناصري، الرومان والبحر الأحمر، ص٢٤- ٢٦ . محمد عبودي إبراهيم، استرابون يتحدث عن حملة ايليوس جاليوس على بلاد العرب (بحث: مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، العدد ٣٩/ ١٩٩١-١٩٩٢م. ص ٥٠٣-٥٣٤)، ص ٥١٣ .

(١٩) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جبرائيل جبور وكمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ط٣، د.ت، جـ ١، ص ٤٢٠ . عن حملة ايليوس جاللوس، انظر: جواد علي، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٣-٥٨ .

ووزيره، وراء إرساله "صالحا" دليلا للحملة، فضلل صالح الغزاة، وعاد سالما إلى البتراء؛ ليشترك في قتل الملك عبادة عام ٩ق. م. ولم يلبث أن قتله الرومان روما عام ٥ ق. م في روما[٢٠].

ورغم ما قدمه الأنباط للرومان من خدمات في مجال قمع الثورات المحلية، وحماية القوافل التجارية، فقد قرر الرومان القضاء على دولة الأنباط، ففي عام ١٠٥م احتل الإمبراطور تراجان Trajanus (٩٨-١١٧م)[٢١] البتراء عاصمة الأنباط، وألحقها بالإمبراطورية الرومانية باسم "الولاية العربية" وأمر برصف طريق ماريس الذي ورد في التوراة باسم طريق الملك" في طريق الملك نمشي"(عدد ٢٠: ١٧). ويبدأ هذا الطريق من دمشق ويمر بحوران ليتصل بطريق قوافل التجارة العربية عبر صحراء جنوب الأردن وشمالي الجزيرة العربية، وزود الرومان هذه المنطقة بحاميات عسكرية[٢٢].

وفي عام ١٠٦م، قام تراجان بربط البحرين الأبيض والأحمر تجاريا، عبر إصلاح القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر، وعبر الطريق البري الذي ينطلق من العقبة إلى شاطئ المتوسط. وأنشأ أسطولا في البحر الأحمر لحراسة الملاحة التجارية، والقضاء على مقاومة العرب ضد منافسة الرومان لهم في التجارة، واعتمد الرومان على مينائي الحوراء وأيلة، ويظهر أن تراجان بهذه الإجراءات كان يخطط لغزو الهند[٢٣].

(٢٠) عن الوزير النبطي صالح، انظر: محمد بيومي مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،١٩٨٩م، ص ٥١٦ .

(٢١) ولد تراجان عام ٥٣م في إيتاليكا في أسبانيا، ومات سنة ١١٧م في كليكيا. أصبح إمبراطورا بيزنطيا عام ٩٨م، اهتم بالتجارة، وتوسع في الشرق الأدنى حتى الفرات شرقا، وخليج العقبة جنوبا. (Larousse,T.21,p 9182).

(٢٢) فيليب حتى، المرجع السابق، جـ ١، ص ٣١٩، ٤٢٢-٤٢٣ .

(٢٣) انظر: عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٢١-٣٩. سيد أحمد الناصري، الرومان والبحر الأحمر، ص ٣٩- ٤٠ .

وقد تمكنت السفن الرومانية التي كانت تبحر إلى الهند بأعداد كثيرة، من تصدير المرجان والجواهر والأدوات الزجاجية والأحجار الكريمة، وجلب الحرير والعطور والأعشاب الطبية والأقمشة فتنقلها القوافل العربية عبر صحاري سوريا[٢٤]. وكان آخر غزو روماني للبحر الأحمر الحملة العسكرية التي أرسلها القيصر سبتيموس سفيروس (Severus Septimus) سنة ٢٠١م إلى اليمن، وقد عاثت فسادا في عدن بين عامي ١٩٦ و ١٩٨م[٢٥].

أما البيزنطيون "الروم" فقد اهتموا أيضا بالبحر الأحمر؛ إذ قرر الإمبراطور جستنيان الأول Justinianus I (٥٢٧-٥٦٥م)[٢٦] أن يتخذ من البحر الأحمر طريقا تجاريا مباشرا بين الدولة البيزنطية والهند؛ فأقام حامية عسكرية في "أيلة" لحراسة البضائع التي تنقل إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وجعل في جزيرة تيران ديوانا لجباية المكوس. وعندما تمكنت مملكة أكسوم[٢٧] في الحبشة من السيطرة على مدخل البحر الأحمر، عقد جستنيان معها اتفاقية تجارية عام ٥٣٢م، تقوم بموجبها مملكة أكسوم بشراء التوابل من الهند ثم تبيعه على الدولة البيزنطية، وكان الإمبراطور البيزنطي يرمي إلى كسر احتكار الفرس لتجارة الحرير، غير أن هذا المشروع

(٢٤) جورج لوفران، تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، ترجمة هاشم الحسيني، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ١٩.

(٢٥) عن حملة سفيروس، انظر: جواد علي، المرجع السابق، جـ ٢ ص ٦٦-٦٨ .

(٢٦) ولد جستنيان الأول عام ٤٨٢م، قرب (Skopje). ومات في القسطنطينية سنة ٥٦٥م. وفي عام ٥٢٧م، أصبح إمبراطور بيزنطيا. سنَّ أنظمة، وجرد حملات ضد القبائل المغيرة "البرابرة"، وتوسع حتى أسبانيا غربا، وشمال أفريقيا جنوبا، والشرق الأدنى (Larousse,T.12,p.5132).

(٢٧) نشأت مملكة أكسوم في القرن الأول الميلادي، وبلغت أوجها في القرن الرابع الميلادي في عهد ملكها إزانا (Ezana)، الذي اعتنق النصرانية سنة ٣٥٠م على أيدي تجار من صور رست سفينتهم على الساحل الأثيوبي. ودخل الأحباش في صراع مع الفرس على اليمن. انظر: فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت، ص ٣٨-٤١ .

لم ينجح[٢٨]. ولتأمين وصول البضائع من البحر الأحمر إلى أوروبا عبر بلاد الغساسنة منح جستنيان الملك الحارث بن جبلة (٥٢٨-٥٦٩ م)[٢٩]، لقب "زعيم" عام ٥٢٩م. وتطورت التبعية النبطية إلى قيام تباحث الحارث مع الإمبراطور جستنيان أثناء زيارته القسطنطينية في نوفمبر عام ٥٦٣م حول وراثة حكم الأنباط[٣٠].

وإذا كان الروم قد فشلوا في الوصول إلى سيلان وجزر الهند الشرقية والصين لحرمان فارس من أرباح التوابل، فإنهم نجحوا في عام ٥٥٢م من جلب دود القز إلى سوريا بوساطة راهب نسطوري. وبدأ الإنتاج المحلي للحرير في الإمبراطورية البيزنطية عام ٥٦٨م[٣١].

١ - الأهمية التجارية للبحر الأحمر في ظل الدولة الإسلامية

أطلق الجغرافيون المسلمون على البحر تسميات عدة مثل "البحر الكبير" و"بحر الفرما"[٣٢]، و"البحر الحبشي"، وسماه معظمهم "بحر القلزم" نسبة إلى مدينة القلزم التي تقع في نهاية خليج السويس على بعد كيلو ونصف شمال مدينة السويس، و"البحر الشرقي". وقد

(٢٨) السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية (٣٢٣- ١٠٨١م)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٨٨ - ٨٩ . رأفت عبد الحميد، الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي (بحث: مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢، مارس ١٩٩٤م، اتحاد المؤرخين العرب - القاهرة: ص٢٦٣-٣٢٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٧).

(٢٩) كان الحارث بن جبلة عاملا للروم، عرف بالحارث الأعرج والحارث الأكبر، كان يسكن البلقاء، حارب المناذرة، وقد توسع حتى وصل أنطاكية. هزم مع الروم في معركة ضد الفرس سنة ٥٣١م. انظر عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ ٣، ص ٤٠٢- ٤١٢.

(٣٠) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٧، ٥٧١ .

(٣١) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٥٢-٥٣ .

(٣٢) الفرما ميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين العريش والفسطاط شرقي تنيس، أهلها من الأقباط، وعرب جذام، تشتهر برطبها الطيب، وتمرها اللذيذ. انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، جـ ٤، ص٢٥٥- ٢٥٦.

تنبه العرب إلى أوقات هبوب الرياح الموسمية التي تكون شمالية شرقية في فصل الصيف وتتجه نحو الجنوب الغربي، فأفادوا منها في رحلاتهم البحرية إلى باب المندب، وفي فصل الشتاء استغلوا الرياح التي تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي في عودتهم إلى الحجاز وشمال البحر الأحمر. أما عرب اليمن فتحرك الرياح الموسمية الغربية سفنهم إلى الهند(٣٣).

وليس صحيحا أن عرب الشمال وبخاصة قريش يجهلون البحر، فللحجاز موانئه على البحر الأحمر مثل: جدة والجار وغيرهما، ولكن اعتمادهم على الطرق البرية في رحلة الشتاء والصيف جعلهم لا يهتمون ببناء السفن مكتفين بأساطيل عرب الجنوب. وعندما قام الرسول ﷺ بغزوة تبوك سنة تسع من الهجرة، قدم عليه يوحنا بن رؤبة صاحب "أيلة"، فصالحه، وأعطاه الجزية، فكتب له الرسول ﷺ كتابا: " بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة [أمان] من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنّة بن رؤبة وأهل أيلة: سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي. ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وإنه طيب لمن أخذه من الناس. وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقا يريدونه، من بر أو بحر"(٣٤). وفي هذا النص نلمس مدى اهتمام الإسلام بأمن القوافل والسفن التجارية، ونجد إشارة إلى أهمية "أيلة" التي كان تجارها يتعاطون التجارة على متن سفنهم في البحر الأحمر، أو بقوافلهم المترددة على الحجاز واليمن.

ليس صحيحا أن عرب الشمال وبخاصة قريش يجهلون البحر

---

(٣٣) عطية القوصي، المرجع السابق، ص١٠-١١ .

(٣٤) ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري. ت. ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥م، جـ ٤ ص ٥٢٥-٥٢٦ .

وعندما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر سنة (٢٠هـ/٦٤١م)، أمره الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) بإعادة حفر القناة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، ولم يمض عام حتى أصبحت السفن تبحر من الفسطاط إلى القلزم ومنه تبحر السفن مثقلة بالأطعمة والسلع والحجاج إلى "الجار" ميناء المدينة، وجدة ميناء مكة. وازدهرت التجارة في البحر الأحمر إبان العصر الأموي، واحتفظ الأمويون بوحدات بحرية لحماية الطريق البحري التجاري الذي يبدأ من عدن إلى "أيلة" مارا بسواحل الحجاز. وفي مستهل العصر العباسي الأول تحولت التجارة إلى الخليج، لقربه من بغداد حاضرة الخلافة العباسية، ولأسباب سياسية تتعلق بالحصار الاقتصادي الذي فرضه أبو جعفر عبدالله المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) على الخارجين عليه من الطالبيين في المدينة النبوية(٣٥).

ولكن في القرن الثالث الهجري قام أحمد بن طولون والي مصر (٢٥٤-٢٧٠ هـ/٨٦٨- ٨٨٤م)(٣٦) بإصلاح الموانئ المصرية، وإنشاء أسطول في البحر الأحمر لمواكبة السفن التجارية وحمايتها من القراصنة، وقد تطور هذا الأسطول حتى بلغ مئتي سفينة قبيل وفاة ابن طولون. واستمرت تجارة البحر الأحمر في ازدهارها في العصر

(٣٥) السيد عبدالعزيز سالم، البحر الأحمر، ص١٢- ٢٠ . أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص ١٢٧. وعن خروج الطالبيين وعلى رأسهم "النفس الزكية" محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٤٥هـ، انظر ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي..الشيباني ٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠-١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥م، جـ ٥، ص ٥٢٩-٥٥٥.

(٣٦) أبو العباس أحمد بن طولون، ولد في سامرًّا سنة ٢٢٠هـ. ولاَّه الخليفة العباسي المعتز بالله مصر، ثم استولى على الشام. كان عادلا، كريما، وكان أبوه مملوكا للمأمون. توفي ابن طولون في مصر سنة ٢٧٠هـ، ودفن في المقطم. ابن خلكان (شمس الدين أحمد ٦٠٨- ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٧م، جـ١ ص١٧٣-١٧٤ .

الإخشيدي (٣٢٣ - ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ - ٩٦٩م) حيث امتلأت أسواق مصر بمنتجات الهند وشرق آسيا(٣٧).

وكانت البضائع تجلب من الموانئ الأوروبية المختلفة عبر الإسكندرية و "الفرما" ثم تنقل على ظهور الإبل إلى "القلزم" في خليج السويس ومنها إلى ميناء "الجار" و"جدة". وكانت "الفرما" معبرا للتجار اليهود المعروفين بـ"الراذانية" الذين ذكرهم ابن خرداذبة (ت ٢٨٠هـ) بأنهم: "يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني [القرفة] وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ويحملونه إلى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة (فرنسا) فيبيعونها هناك"(٣٨).

وتحدث المقدسي (٣٣٦-٣٧٥هـ) عن أهمية بلدة القلزم ودورها في التبادل التجاري مع الحجاز، فقال: إن ميرة الحجاز بلغت - في القرن الرابع الهجري- ثلاثة آلاف جمل محمل بالحبوب والدقيق وذلك كل أسبوع. ووصف القلزم بأنها خزانة مصر(٣٩). وعلى مستوى

(٣٧) عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٦٨ . السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر، ص١٢- ٢٠ .

(٣٨) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله. ت ٢٨٠هـ)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن،١٨٨٩م، ص١٥٣-١٥٤ .

(٣٩) المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد ٣٣٦-٣٧٥هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٠٩م، ص١٩٥- ١٩٦ .

التجارة الدولية كان تجار من أوروبا يصلون إلى القلزم، عبر ميناء الفرما على البحر الأبيض المتوسط، فيبحرون من القلزم إلى الجار ثم جدة فعدن فالهند(٤٠).

وفي عهد الدولة العبيدية "الفاطمية"(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م)، وتحديدا في مستهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي برز ميناء "عيذاب"(٤١) كمرفأ صالح للملاحة التجارية ونقل الحجاج؛ وذلك لعمق ساحله وخلوه من الشعاب المرجانية وقربه من جدة بحيث كانت المسافة بينهما تستغرق يوما وليلة بالريح الطيبة. وأصبح تجار العرب يترددون على موانئ الصين مثل: كانتون(٤٢) ومن تجار الحجاز المقيمين في الصين أبو العباس الحجازي الذي مكث في تلك البلاد أربعين عاما وعاش في النصف الثاني من القرن الخامس، وكان على صلة بالحكام العبيديين(٤٣).

وعندما شغل صلاح الدين الأيوبي(٤٤) منصب وزارة مصر في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ، في أيام الحاكم العبيدي العاضد لدين

---

(٤٠) عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٤١ .

(٤١) تقع عيذاب في منطقة حلايب بين مصر والسودان على بعد ١٢ ميلا شمال قرية حلايب وتعرف اليوم عند بدو البشارية بسواكن القديمة.انظر: السيد عبدالعزيز سالم،البحر الأحمر، ص٤١.

(٤٢) تقع كانتون (tcheou–Kouang) في الصين الشيوعية، وهي عاصمة إقليم (tong–Kouang) ، في دلتا (kiang–Si) . كانت منذ القدم مدينة التجارة والاتصالات الحضارية بين الصين وغرب آسيا، وأوربا . (Larousse,T.4,p.1474).

(٤٣) هو يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، كان أبوه وأهله من قرة دوين شرقي أذربيجان وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذانية، من الأكراد، ولد في تكريت عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م، توفي في دمشق سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م. انظر ترجمته عند: (ابن خلكان، المصدر السابق،جـ٧، ص ١٩٣-٢٠٣) .

(٤٤) هو عبد الله العاضد ابن يوسف بن الحافظ أبو محمد، آخر ملوك الدولة العبيدية، ولد عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م، وبويع بالخلافة بمصر عام ٥٥٥هـ بعد موت الفائز. مات مريضا عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م، جـ ٤، ص ١٤٧.

الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م)[٤٥]، اهتم كثيرا بأمن البحر الأحمر، وحماية الحجاج المصريين والمغاربة والأندلسيين الذين اضطروا إلى استخدام ميناء عيذاب بعد أن استولى الفرنج على "أيلة" سنة ١١١٦م. وعندما أصبح صلاح الدين سلطانا لمصر (٥٦٧-٥٨٩هـ/ ١١٧١-١١٩٣م) وجد أن بقاء "أيلة" بأيدي الفرنج يهدد القوافل التجارية، ويعرقل حركة الاتصال البري بين مصر وكل من الشام والحجاز، فقرر استعادتها سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م. ثم بسط نفوذه على الحجاز، وضم اليمن سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، فسيطر على البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب[٤٦].

وقد ترتب على ذلك أن ازدادت حركة التجارة البرية والبحرية، وقد حاول ابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ) الذي زار مصر زمن صلاح الدين إحصاء القوافل التي كانت تسير من "عيذاب" إلى قوص[٤٧] محملة بالبضائع فلم يتمكن من كثرتها "ولاسيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب" وذكر أن أهم هذه البضائع: الفلفل والقرفة، إلى جانب بضائع محلية مثل: اللؤلؤ الذي كان يصاد في ساحل عيذاب[٤٨].

---

(٤٥) أحمد عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها التجارية (٣٠١-٤٨٧هـ)، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ط١، ١٩٨١م، ص ١٧٩، ١٨١ .

(٤٦) السيد عبدالعزيز سالم، سياسة صلاح الدين الدفاعية في البر والبحر ضد قوى الصليبيين (بحث: مجلة التاريخ العربي، العدد ٢، ربيع ١٩٩٧م، جمعية المؤرخين المغاربة.ص٢٣-٣٣)، ص ٣١-٣٢ .

(٤٧) قال ياقوت : إن قوص مدينة كبيرة في صعيد مصر، وأهلها أثرياء، وهي محطة تجار عدن (ياقوت الحموي، المصدر السابق، جـ ٤، ص٤١٣).

(٤٨) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني ٥٤٠-٦١٤هـ /١١٤٥-١٢١٧م)، الرحلة، نشر محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة. د. ت، ص ٦٣-٦٤ .

٢ - توسع الصليبيين تجاه خليج العقبة (١٠٩٩-١١٧٧م/٤٩٢-٥٧٢هـ)

لم يكن الفرنج يجهلون البحر الأحمر؛ لأنهم ورثة الاستعمار اليوناني والروماني، ولما يجدونه من ذكر لهذا البحر في أسفار التوراة: ففي سفر (إشعياء ١١: ١٥) ورد البحر الأحمر باسم "بحر مصر"، و"بحر سوف" ضمن سياق الحديث عن الجراد الذي سلط على زروع مصر (خروج ١٠: ١٢-١٩)، وفي ثنايا قصة السلوى التي أخرجها الله لبني إسرائيل من البحر (عدد ١١: ٣١) وارتبط البحر الأحمر في أذهان اليهود والنصارى بقصة خروج بني إسرائيل من مصر.

ورغم أن بعض المؤرخين الصليبيين قد خلطوا في قصة الخروج بين خليج السويس وخليج العقبة، إلا أنهم تناقلوا أن بني إسرائيل طافوا بعد التيه حول خليج العقبة حتى وصلوا أرض أدوم[٤٩]. وقد اقترنت العقبة باسم "عصيون جابر" وفيها ركب سليمان عليه السلام (٩٦١-٩٢٢ ق.م) أسطوله، وجاء في التوراة: "وعمل سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم" (ملوك أول ٩: ٢٦). وقد تولى الفينيقيون في صور بناء الأسطول بسبب قلة الأخشاب في فلسطين، ثم أرسله ملكهم حيرام الأول (٩٦٩- ٩٣٩ ق.م) إلى سليمان عليه السلام، حيث تولى تركيبه بحارة فينيقيون جابوا فيه شواطئ الجزيرة العربية، والساحل الأفريقي بغية الحصول على البخور والصندل والعاج والذهب والحجارة الكريمة. ولما مات سليمان، ضعفت الملاحة في البحر الأحمر، وبعد تحطم سفينة كبيرة ليهوشافاط (٨٧٣-٨٤٩ ق.م) ملك يهوذا (١ملوك ٢٢: ٤٨) استولت أدوم على المرفأ، لكن أمصيا ملك يهوذا (٧٩٩-٧٧١ ق.م)

---

(٤٩) أدوم هو لقب عيسو بن إسحاق، أطلق على إقليم كان يسكنه هو وأبناؤه يمتد مئة ميل بين البحر الميت وخليج العقبة يحيط بغور عربة، عاصمته سلع التي أصبح اسمها البتراء. انظر: بطرس عبد الملك وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، القاهرة، ط١٢، ٢٠٠٠م، ص ٣٩ .

حارب الأدوميين، واحتل المنطقة وأعاد بناء الميناء (٢ملوك ١٤: ٢٢ و ٢أخبار:١،٢). ثم غدا هذا الموقع الاستراتيجي مكان تنافس بين القوى المحلية من آراميين وأنباط، وبين قوى أجنبية كاليونان والرومان، وفي عهد الدولة البيزنطية صارت "أيلة" مركزا كنسيا وحضر بطاركتها بعض المجامع الكنسية[٥٠].

واستوحى المؤرخ الصليبي فوشيه دو شارتر Foucher de Chartres (١٠٥٨-١١٢٧م) تصوره للبحر الأحمر من التوراة؛ حيث ورد أن نهرا يخرج من عدن ليسقي الجنة، ثم يتفرع أربعة أفرع: المحيط الهندي وجيحون ودجلة والفرات (تكوين ١٠:٢-١٤). ويبدو أن دو شارتر أدرك فيما بعد إمكان ربط البحرين الأبيض والأحمر، وذلك من خلال مطالعاته: "ورد في الكتب أن ملكين اثنين أرادا أن يصلا هذين البحرين فيصب أحدهما في الآخر أولهما سيزوستريس المصري[٥١] وثانيهما دارا الفارسي وقد شاء هذا الأخير نظرا لأنه فاق الأمير المصري سلطة وقدرة، أن ينجز ما سعى إليه". وظن دو شارتر أن المحيط الهندي أعلى من البحر الأبيض المتوسط؛ لذلك علل عدم تنفيذ هذا المشروع بالخوف على مصر من فيضان محتمل. وتساءل عن ماهية البحر الأحمر وعن مياهه أعذبة أم مرة؟ وهل له مخارج أم أنه بحيرة ؟. وفسر هذه التسمية بحمرة الرمل والحجارة في قاعه: "ويقولون: إن هذا البحر ينبع من المحيط الهندي في الجنوب ويمتد كلسان شمالا إلى ايليم (أيلة)... حيث ينتهي على مقربة من جبل طور سيناء"[٥٢].

(٥٠) فيليب حتى، تاريخ لبنان، ص ١٢٩، ١٣٦ - ١٣٧. نعوم بك شقير، تاريخ سيناء، ص ١٩٣- ١٩٦. بطرس عبدالملك وآخرون، المرجع السابق، ص١٦٢- ١٦٤، ٦٣١ .

(٥١) يرى عبد العزيز صالح أن هذا الاسم محرف عن اسم سنوسرت الأول أو الثالث، ويرجح أن القناة شقت في عهد الفرعون نيكاو عام ٦٠٠ ق.م، انظر: عبد العزيز صالح، المرجع السابق، جـ ١ص ١٨٧ .

(٥٢) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٥٨- ١٥٩، ٢٣٩-٢٤٠.

في بداية الاستيطان الفرنجي في فلسطين لم يكن البحر الأحمر مهما من الناحية العسكرية لدى الصليبيين، وبخاصة قبل قيام الدولة الأيوبية التي شملت مصر واليمن والحجاز والشام؛ وذلك لأن اهتمام الفرنج كان منصبا على البحر الأبيض المتوسط، لأنه يمثل لهم خط رجعة وجهة المدد القادم من أوروبا. ولكن ملوك الفرنج أدركوا ضرورة تأمين مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب حيث صحراء النقب، ووادي عربة وشرق الأردن. وكانت تقطن هذه المنطقة قبائل عربية متنقلة، رأى شيوخها في سقوط القدس بأيدي الصليبيين خطرا على مصالحهم، فقد كانوا يبيعون الفائض من محاصيلهم في المدن الساحلية، فبادروا إلى الاتصال بالملك الصليبي جودفروا دو بيون Godefroi de Bouillon (١٠٩٩-١١٠٠م)(٥٣)، وتقديم الولاء له مقابل السماح بتحرك قوافلهم وقطعانهم داخل مملكته، فأذن لهم بالعبور والبيع في يافا حيث تحول هذا الميناء إلى مركز تبادل تجاري بين المسلمين والأوروبيين(٥٤).

واهتم الصليبيون بتأمين الطريق الجنوبي الممتد من صحراء النقب إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، والهيمنة على طريق التجارة الدولية حيث تحمل القوافل بضائع الهند والشرق الأقصى من موانئ الحجاز التي تستقبلها من ميناء عدن، ثم تتجه شمالا إلى الشام عبر شرق الأردن، وغربا إلى مصر بمحاذاة "أيلة" مرورا بشمال سيناء. وأقام الفرنج على امتداد هذه الطرق نقاط جباية للضرائب.

(٥٣) هو جودفروا الرابع دو بولوني أو بويون، ولد في بيزي عام ١٠٦١م تقريبا، ابن أوستاش الثاني كونت بولوني، وورث عمه جودفروا الثالث دوق اللورين فأصبح دوق اللورين الأسفل (١٠٨٩-١٠٩٥م)، باع دوقيته، وغادر في الحملة الصليبية الأولى، وانتخب أول ملك غير متوج لمملكة بيت المقدس (١٠٩٩-١١٠٠م) (Larousse,T.10,p.4198).

(٥٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت،ط١، ١٩٦٨م، جـ ١، ص ٤٥٩ . أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية ص١١٤ .

وشكلت منطقة شرق الأردن أهمية سياسية وعسكرية لمملكة بيت المقدس؛ فهي تقع بين جنوب البحر الميت وخليج العقبة، وتتحكم بدرب الحج الشامي والمصري، وطريق الاتصال البري بين مصر والشام؛ لذا سارع الفرنج إلى إنشاء مستعمرات "قلاع" فيها للهيمنة على طريق القوافل وسلب ما يمكن سلبه منها، وفرض ضريبة العبور على القوافل العربية(٥٥).

ولخص لنا المؤرخ الفرنجي وليم الصوري (١١٣٠-١١٨٤م) الأهمية التجارية للبحر الأحمر لدى قومه الفرنج بقوله: "وأن كل ما تحتاجه بلادنا من أنواع التوابل والجواهر والتحف الشرقية والمصنوعات الأجنبية إنما يرد من بلاد الهند وسبأ، وبلاد العرب والحبشة والسودان وكذلك من فارس وغيرها من البلاد المجاورة لها؛ حيث يتم نقل كل هذه السلع إلى صعيد مصر عبر البحر الأحمر الذي يعد المنفذ لهذه الشعوب إلينا، ثم تفرغ السفن حمولتها في عيذاب"(٥٦).

وإذا كان الصليبيون قد هيمنوا على طريق التجارة المؤدي إلى الشام من الجزيرة العربية؛ فقد ظلت دمشق ملتقى التجارة الدولية، وسوق البضائع المجلوبة من سيلان والهند عبر الخليج العربي، ومن الصين عبر الطريق البري الذي ينتهي بالرقة على الفرات، ومنها إلى دمشق، حيث تصدر البضائع إلى أوروبا من خلال الموانئ الصليبية. وقد حوت سجلات مملكة بيت المقدس تفصيلات للضرائب المفروضة على البضائع العابرة لأراضيها، والتي تباع في أسواقها وموانئها(٥٧).

---

(٥٥) رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ١٨-١٩ .

Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem,T.II,p.247.

(٥٦) وليم الصوري (ت ١١٨٤م)، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة الجزء الثاني ١٩٩٢م، الجزء الرابع ١٩٩٥م، جـ ٤، ص ٦٩ .

(57) Heyd,Histoire du Commerce du Levant au moyen age ,T.I.p.170,173-174.

وفور تسنم بلدوين الأول Baudouin I (١١٠٠-١١١٨م)(٥٨) عرش مملكة بيت المقدس قام بغزو المنطقة المحيطة بالبحر الميت مكتفيا بالاستيلاء على عدد من الواحات لتأمين الغذاء لمملكة بيت المقدس. ثم توسع شرقا عام ١١٠٧م، نحو البلقا فاضطر طُغتكين أتابك دمشق (٤٩٧- ٥٢٢هـ/١١٠٤-١١٢٨م)(٥٩) إلى توقيع معاهدة معه عام ١١٠٨م (٥٠١هـ). ويقول براور: إن هذه المعاهدة تعد اعترافا من دمشق بسيادة الفرنج على هذه المنطقة. وربما كان توغل بلدوين في شرق الأردن تم بتعاون من البدو النصارى كما يعتقد المؤرخ الفرنسي جان ريشار. ولأهمية شرق الأردن أضيف إلى الألقاب الملكية لقب " سيد شرق الأردن"(٦٠).

وعلل المؤرخ الفرنسي إيدو (Eydoux) اهتمام بلدوين الأول بشرق نهر الأردن والبحر الميت، ووادي عربة إلى خليج العقبة بأنه عائد إلى حرص الملك الصليبي على إقامة نقاط حماية لمملكة بيت المقدس ضد أي هجوم محتمل، وقطع طريق الإمدادات العسكرية بين مصر والشام، والتحكم بطريق القوافل الإسلامية المترددة على مصر والشام والحجاز، بفرض إتاوات عليها، ومصادرة بعضها عند الحاجة. واستغلال الأراضي الزراعية في المنطقة، وتجنيد سكانها من البدو وبخاصة النصارى منهم في التجسس وقطع الطريق(٦١).

(٥٨) بلدوين دو بولوني هو أخ جودفروا دو بويون، أصبح أميرا على الرها (١٠٩٨-١١٠٠م)، وبعد وفاة أخيه، انتخب ملكا على مملكة بيت المقدس (١١٠٠-١١١٨م) .(Larousse,T.3,p.928.)

(٥٩) لقبه ظهير الدين، كان مملوكا للملك تتش بن ألب أرسلان، عاقلا، مجاهدا للفرنج. مات في صفر سنة ٥٢٢هـ. وخلفه ابنه تاج الملوك بوري.(ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٥٢).

(60) Richard,Le Royaume Latin de Jerusa-lem,p.39-40.؛ Prawer, Op.Cit.,T.II,p.265,274

(61) Eydoux(Henri-Paul), les Chateaux du Soleil,p.133-134.

وكان بلدوين الأول - كما يقول وليم الصوري - لا يتحرك نحو منطقة إلا بعد "أن يحصل على معلومات دقيقة تتعلق بالنواحي المجاورة، وتقصي أحوال الولايات مستصحبا معه الأدلاء من أهل الخبرة بالمنطقة"، وهذا ما فعله عندما هَمَّ بغزو العقبة(٦٢)؛ فقد بادر إلى بناء حصن يضمن له خط الرجعة، ففي عام ١١١٥م/٥٠٩هـ، قاد حملة على شرق الأردن قوامها مئتا فارس وأربعمئة من الجنود المشاة تولوا بناء قلعة الشوبك (Montereal) على بعد حوالي ٣٠ كم شمال البتراء. ثم سار بلدوين في العام التالي إلى ساحل البحر الأحمر قاطعا ١٣٠ كم تقريبا، حيث بنى قلعة على تل في جزيرة فرعون (de Graye Ile)(٦٣).

حدثنا فوشيه دو شارتر مؤرخ بلدوين الأول أن سيده توجه عام ١١١٥م: "إلى جزيرة العرب وشيد قلعة منيعة على قمة جبل صغير وهي لا تبعد كثيرا عن البحر الميت، حوالي مسيرة ثلاثة أيام، وتبعد عن القدس حوالي أربعة أيام. وقد وضع فيها حامية؛ لتتسلط على البلاد حماية لمصالح المسيحيين. وقد قرر أن يدعو تلك القلعة مونتريال (الشوبك) تمجيدا لنفسه؛ لأنه بناها في فترة قصيرة بقليل من الرجال وكثير من الجسارة. في عام ١١١٦م عندما ذهب الملك مع قرابة مئتي فارس؛ ليزور قلعته ثانية في بلاد العرب، تقدم إلى حد البحر الأحمر ليرى ما لم يشاهد من قبل مؤملا أن يجد شيئا في طريقه قد يرغب في اجتيازه. في ذلك الوقت وجدوا مدينة إيليم (أيلة) على شاطئ ذلك البحر حيث قرأنا أن بني إسرائيل عسكروا بعد أن عبروا البحر. وعندما سمع القاطنون هناك بقدوم الملك انسحبوا وركبوا البحر في قواربهم الصغيرة وقد أصابهم هلع شديد. وبعد أن تفقد الملك ورجاله المكان كما طاب لهم، عادوا إلى قلعة مونتريال

(٦٢) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ ٢، ص٣٢٦ .

(63) Eydoux(Henri-Paul), Op. Cit.,p.134,136.

ومنها إلى القدس"(٦٤). وفي عام ٥١١هـ/١١١٧م، شيد بلدوين الأول - أيضا - قلعة وادي موسى، وعين رومان دو بوي (Romain du Puy) سيدًا لشرق الأردن ووادي موسى ووادي عربة (١١١٨- ١١٣٣م)(٦٥).

وبهذه القلاع وتلك الغارات أخضع بلدوين الأول القبائل القاطنة شرق الأردن وجعلها تابعة له، وهيمن على المراعي والأودية، وكان لا يسمح لأي قبيلة عربية أن تضرب خيامها إلا بإذن منه مقابل ضريبة تؤدى لخزينة مملكة بيت المقدس بعدد الخيام المضروبة، وخدمات إجبارية كالاشتراك معه في المعارك، والتجسس على بني جلدتهم(٦٦). ومن خلال قلاعه تلك بسط بلدوين نفوذه على طريق التجارة ودرب الحج، مضيفا موارد ضخمة إلى خزينة مملكته التي أصبحت تمتد من العقبة جنوبا إلى بيروت شمالا. ولحماية ميناء يافا من المنافسة التجارية، قام في عام ٥١١ هـ/١١١٧م بهجوم على الفرما ونهبها وأحرقها ودمر مساجدها ثم رحل عنها(٦٧).

واهتم فولك دانجو (Foulque d'Anjou) ملك مملكة بيت المقدس (١١٣١-١١٤٣م)(٦٨)، بالمنطقة الواقعة شرق البحر الميت وجنوبه، وعين على حصن "الشوبك" سنة ١١٣٢م، باجان (Pagans)، الذي اتبع خطة عسكرية للهيمنة على هذه المنطقة الحيوية. كما عين الملك

(٦٤) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص ١٥٧-١٥٨ .

(65) Richard,Op. Cit.,p. 84.

(66) Prawer,Op. Cit.,T.II,p304,510.

(٦٧) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ ١، ص ٤٢٤، جـ ٢، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨١٣-٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية. د.ت، جـ٥، ص١٧١ .

(٦٨) هو فولك الرابع كونت أنجو، أحد بارونات مملكة بيت المقدس. من أسرة إقطاعية فرنسية، دخل في صراعات إقليمية، وفي عام ١١٢٠م، غادر فرنسا إلى فلسطين، ثم عاد إلى بلاده ليكون تابعا لملك فرنسا على ماين. وفي مارس ١١٢٨م، رجع إلى القدس، ليتوج بعد موت بلدوين الثاني ملكا على بيت المقدس في ١٤سبتمبر١١٣١م. (Grousset,Histoire des croisades,T.III,p.197-201)

الصليبي أحد المقربين إليه ويدعى باين بوتييه Paien le Bouteiller سيدا لشرق الأردن ووادي موسى (١١٣٣ - ١١٤٨م) الذي بنى عام ١١٤٢م (٥٣٤هـ) قلعة الكرك (Krak de Moab). وكثر عدد المستعمرين في هذه الحصون، وأخذوا يعتمدون في غذائهم على الفلاحين النصارى العرب، الذين يقطنون في المنطقة أو يشاطرون الصليبيين السكنى في قلاعهم، ولم يكونوا - دائما- على وفاق مع الفرنج، فقد حدث بعد موت فولك دانجو أن احتلت قبيلة تركمانية حصن الوعيرة في جبال "الشراة" قرب وادي موسى، باتفاق مع نصارى عرب مقيمين فيها، فجرد الملك بلدوين الثالث Baudouin III (١١٤٣-١١٦٢م)(٦٩) وكان عمره ثلاث عشرة سنة، حملة عام ١١٤٤م (٥٣٥هـ)، وحاصر الحصن؛ فاضطرت القبيلة إلى الجلاء عن القلعة(٧٠). ولكي يعزز بلدوين الثالث الوجود الصليبي في هذه المنطقة منحها في ٣١ يوليو ١١٦١م (٦/٨/٥٥٦هـ) لأحد رجاله الأشداء، وهو فيليب دو ميي Philippe de Milly (١١٦١ - ١١٦٨م)(٧١).

٣- التوسع الصليبي في منطقة البحر الأحمر (١١٧٧-١١٨٨م/ ٥٧٢-٥٨٤هـ)

طمع ملوك بيت المقدس في غلال مصر منذ عهد بلدوين الأول إلى عهد عموري الأول Amaury I (١١٦٢-١١٧٤م)(٧٢)، وخططوا

(٦٩) ولد بلدوين الثالث، عام ١١٣٠م، وهو ابن الملك فولك دانجو، توفي أبوه وعمره ثلاث عشرة سنة؛ فتولت أمه مليزاند الوصاية عليه، حاصر دمشق مع الحملة الثانية في ٢٨ نوفمبر ١١٤٤م. مات عام ١١٦٢م. للمزيد: انظر:

Grousset, L'epopee des croisades,p.132-133,155.

(٧٠) Prawer,Op. Cit.,T.II,p.330,332,379.؛ محمود رزق محمود، العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى واقعة حطين رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م، ص ٥٣-٥٤ .

(71) Rey(E.), Les Colonies Franques de Syrie,p.394.

(٧٢) ولد عموري الأول عام ١١٣٥م، خلف أخاه بلدوين الثالث على مملكة بيت المقدس عام ١١٦٣م. تزوج ماري حفيدة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس. ومات سنة ١١٧٤م (Larousse,T. 1,p.293).

لاحتلالها، وفرضوا على حكومتها إتاوة سنوية، ولكنهم لم ينجحوا وبخاصة بعد أن أصبح صلاح الدين الأيوبي سلطانا على مصر؛ فعمدوا إلى حصار مصر اقتصاديا وذلك بتهديد التجارة الدولية في البحر الأحمر، ومن أجل ذلك قاموا بغارات على سيناء وبحيرات السويس، لقطع الطريق البري لحرمانها من البضائع القادمة من اليمن عبر الطريق التجاري الممتد من عدن عبر الجزيرة العربية إليها، ومنع وصول القوافل إلى دمشق؛ فعززوا وجودهم في شرق الأردن، وجنوب البحر الميت، وشمال سيناء(٧٣). وقد خطط عموري لاحتلال مصر، واتهمه وليم الصوري بحب المال وقال: إنه عرض على الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٣-١١٨٠م)(٧٤) اقتسام مصر لكونها "بلدا فاحش الثراء". فقام الأسطول البيزنطي بالهجوم على مصر بحرا، والجيش الصليبي بغزوها برا، ولم تنجح قوات التحالف باستعمار مصر بسبب الظروف الجوية، والمقاومة المصرية التي أحرقت الأسطول، وفتحت قنوات النيل لتحاصر الجنود المشاة، ويشير ابن الصوري إلى أن الإمبراطور البيزنطي لم يف بوعده فلم يرسل المال الكافي لهذه العملية العسكرية(٧٥).

وبعد فشل الفرنج في احتلال مصر، ويأسهم من ذلك بسبب ظهور صلاح الدين الأيوبي، ركزوا على المدى الحيوي لهم المتمثل بشرق الأردن الذي تحول إلى إمارة مستقلة، وأصبحت تمتد من عمان

(٧٣) براور، عالم الصليبيين ، ص ٧٤ . عطية القوصي، المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٧٤) ولد الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس عام ١١٢٢م، وهو الابن الرابع للإمبراطور حنا الثاني، هيمن مؤقتا على جنوب إيطاليا (١١٥٥-١١٥٦م)، وخضع له صليبيو شمال الشام عام ١١٥٩م. تغلب على دالماسيا عام ١١٦٨م، وعلى صربيا عام ١١٧٢م. هزمه السلاجقة عام ١١٧٦م. مات عام ١١٨٠م (Larousse,T.14,p.5807).

(٧٥) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ ٤، ص٩٩-١٠٠، ١٢٨ .

شمالا إلى العقبة جنوبا قاعدتها الكرك، وترتبط بها حصون عدة أشهرها: قلعة وادي موسى قرب البتراء، الطفيلة، معان، الوعيرة، أيلة وجزيرة فرعون، وعجلون وجرش، وقلعة جبل جلعاد شمال البلقاء. وكانت الصحراء الممتدة من وادي عربة إلى صحراء سيناء تابعة لإمارة الكرك، بل إن راهب فاران في سيناء كان يتبع رئيس أساقفة الكرك(٧٦).

وتقع قلعة الكرك على بعد ١٣٠ كم جنوب عمان، وقد أقيمت على جبل يرتفع ٩٦٠م عن سطح البحر. وبالنظر إلى موقعها الاستراتيجي وتهديدها قوافل التجارة العربية، حاول أتابكية دمشق، ووزراء مصر انتزاعها من الصليبيين ولم يتحقق ذلك. ولخطورة الموقع قام موريس Maurice صاحب الشوبك سنة ١١٥٢م، بمنح الاسبتارية برجا وحصنا أماميا من قلعة الكرك، ومنحهم عشر الغنائم والضرائب التي كان يفرضها على المسلمين. وفي سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م، حولها فيليب دو ميي إلى إمارة، وعندما عين رئيسا للداوية سنة ١١٦٩م، أقطعها لابنته الأميرة اتيانيت (Etiennette de Milly).

وفي سنة ١١٧٠م/٥٦٥هـ، حاصرها نور الدين محمود زنكي (٥٤١- ٥٦٩هـ/١١٤٦- ١١٧٤م)(٧٧) ولكنه اضطر إلى فك الحصار لقدوم نجدة من القدس. كما قام صلاح الدين بمحاولات عديدة لاقتحام قلعتها الحصينة(٧٨).

---

(76) Prawer,Op.Cit.,T.II,p.477؛Rey(E.), Op. Cit.,p.393-402.

ولمعرفة مواقع هذه القلاع انظر الخريطة المرفقة رقم (١).

(٧٧) هو محمود بن زنكي بن آقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، ولد في حلب سنة ٥١١هـ/١١١٨م، تولى إمارتها بعد وفاة أبيه سنة ٥٤١هـ، جده من موالي السلاجقة. مات بعلة الخوانيق في قلعة دمشق عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، جـ٧، ص ١٧٠) .

(٧٨) جوناثان رايلي – سميث، الاسبتارية ص ٥٩ .

l'Orient Latin,p.36. de Schlumberger,Numismatique.

وبعد أن اعتمد الصليبيون على ما يجنونه من القوافل الإسلامية سلبا وضرائب، قرروا خوض تجربة جديدة، ومغامرة خطيرة وهي احتلال جزر متقدمة في البحر الأحمر، والاستيلاء على الموانئ، بل والوصول إلى عدن مستودع البضائع الهندية، وقد تولى كبر هذا المشروع الاستعماري مغامر صليبي من أصل فرنسي يدعى رونو دو شاتيون (Renaud de Chatillon) أمير الكرك (١١٧٧-١١٨٧م) وسمَّاه المسلمون "أرناط". ولابد لنا من معرفة خلفيته العقدية والنفسية التي أثّرت في سلوكه، وجعلته يقدم على أمور لم يجرؤ أحد من الصليبيين عليها لا قبله ولا بعده.

وصل أرناط إلى إنطاكية ضمن حاشية الملك الفرنسي لويس السابع (VII Louis) ملك فرنسا (١١٣٧-١١٨٠م)[٧٩] في الحملة الثانية عام ١١٤٧م. ودخل في خدمة ريموند دو بواتييه أمير أنطاكية (Raymond de Poitiers) (١١٣٦- ١١٤٩م)، وبعد وفاته تزوج أرناط أرملته كونستانس (Constance d'Antioche) سنة ١١٥٣م، فسيطر من خلال هذا الزواج على إمارة أنطاكية وقام بقرصنة بحرية ضد قبرص وصقلية عام ١١٥٦م، متبعا أسلوب السلب والنهب، ولم يتورع عن مداهمة الكنائس وتعذيب رجال الدين من بني ملته. وشن غارات ضد أهداف إسلامية في شيزر[٨٠] عام ١١٥٧م، وحارم. وفي عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م، هجم أرناط على مراعي المسلمين حول الرها، واستاق قطعان الأغنام والماشية والخيول، فأسره نور الدين

(٧٩) ولد لويس السابع " الشاب" عام ١١٢٠م،ابن لويس السادس، تصادم مع البابا انوسنت الثاني، نجح في توطيد حكمه بمساعدة رجال الدين، وساند البابا الكسندر الثالث ضد فريديك بربروسا. وبزواجه من الينور الأكيتينية، تمكن من ضم إقليم أكيتين جنوب غرب فرنسا عام ١١٥٢م. ومات في باريس عام ١١٨٠م. (Larousse,T.13,p.5593).

(٨٠) تقع شيزر قرب المعرة وحماة ويمر بها نهر العاصي، فتحها صلحًا أبو عبيدة عامر بن الجراح سنة ١٧هـ، من أمرائها بنو منقذ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٣، ص ٣٨٣ .

محمود زنكي، ومكث في السجن ست عشرة سنة، تعلم خلالها لغة التخاطب مع المسلمين، وتعرف على أنماط معيشتهم، وآفاق عقيدتهم(٨١).

وبعد أن أفرج المسلمون عن أرناط عام ١١٧٧م، وجد زوجته قد ماتت، وفي سنة ١١٧٧م (٥٧٢هـ)، تزوج أرناط من اتيانيت دو مييي أميرة الكرك، فأصبح أميرا على الكرك، وأخذ يخطط من موقعه الاستراتيجي لعمليات عدوانية ضد قوافل المسلمين، ولم يجرؤ على التنفيذ إلا بعد أن فاجأ صلاح الدين الأيوبي بهجوم مباغت في مستهل جمادى الآخرة سنة ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م (٥٧٣هـ). في تل الصافية جنوب شرق الرملة، فقتل من المسلمين عددا كبيرا(٨٢). لقد كانت هذه الوقعة اختبارا لقوة صلاح الدين، تجرأ بعدها أرناط على القيام بأعمال عسكرية في البر والبحر:

أولا: الغزو البري

راقب أرناط القوافل العربية، ولم يكتف بما يجبيه منها من ضريبة العبور، فقرر التوغل في بلاد العرب بغية الاستيلاء على مستودعات البضائع الهندية في الحجاز واليمن. وخطط لاقتحام تيما، تلك الواحة التي قرن اسمها في التوراة بقوافل التجارة: " في بلاد العرب تبيتين، يا قوافل الددانيين (أهل العلا). هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكان تيما" (إشعياء ٢١: ١٣-١٤)، ولا شك أنه أدرك من عملائه من البدو أن استيلاءه على تبوك و تيما يمكنه من الوصول إلى

(81) Schlumberger,Op. Cit,p.37. ؛Prawer,Op.Cit,T.II,p.585.

(٨٢) البنداري (الفتح بن علي)، سنا البرق الشامي (٥٦٢-٥٨٣هـ/١١٦٦-١١٨٧م)، اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، دار اللواء،الرياض، ط٢ ١٩٨٩م، ص١٣٠-١٣١ .

Pernoud, les hommes des croisades.,p.134-135.

يقدر بعض المؤرخين الغربيين عدد الشهداء المسلمين بعشرين ألفا. انظر

Schlumberger,Op. Cit.,p.72.

المدينة، وقد احتاط لنفسه، فأغلق الثنية(٨٣) المفضية من العقبة إلى طريق الحج الحجازي؛ لكي لا تتعقبه قوة من الشام، وذلك سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م. ولكنه نكص على عقبيه، عندما علم أن جيش دمشق في طريقه لاحتلال الكرك(٨٤).

قال ابن الأثير: إن أرناط "عزم على المسير في البر إلى تيما، ومنها إلى مدينة النبي ﷺ، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة". وأنه لم يعد عن مشروعه إلا بعد أن هدده عز الدين فرخ شاه ابن أخي صلاح الدين الأيوبي، صاحب دمشق (٥٧٥-٥٧٨هـ/١١٧٩-١١٨٢م) بأخذ الكرك(٨٥). وهذا يعني تصميم هذا الفارس الصليبي على اختراق شمال الجزيرة العربية، وأن صاحب دمشق كان يدرك ذلك، فتوجه إلى معقل الفرنج "الكرك" لثني أرناط عن مقصده.

أما عماد الدين الكاتب الأصفهاني (٥١٩- ٥٩٧هـ/١١٢٥-١٢٠١م) الذي كان أمين سر صلاح الدين، فقد ذكر أن أرناط حدد زمن هذا الغزو في وقت الربيع " كون البريَّة معشبة" لتجنب حرارة الصحراء، واستهدف تيما لأنها "دهليز المدينة"، وذكر العماد الأصفهاني أن أرناط تجاوز تيما "وتقرب من المدينة النبوية"(٨٦). وأمام هذه الأعمال العدوانية التي ارتكبها أرناط - ولم يرع الهدن الموقعة بين المسلمين والفرنج - فقد هدده صلاح الدين وتوعده وهاجم حصنه أكثر من مرة، فتظاهر أرناط بالخضوع "وبقي الأمن شاملا والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا وهو يمكس الجاي والذاهب ويجبي من الضروب والضرايب". إلا أنه عاد إلى طبعه، واستولى أوائل ٥٨٢هـ/١١٨٧م، على قافلة "عظيمة ونعمة جليلة"؛ فطالبه صلاح

(٨٣) البنداري، نفسه، ص ١٨٥ . المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٨٥ .

(٨٤) كان أحمد بن طولون قد شق طريقا في الجبل الفاصل بين العقبة وطريق الحجاز لتسهيل عبور الحجاج إليه، انظر: Prawer,OP. Cit .,T.II,p.297.

(٨٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٤٧٠ . ١٨٥.

(٨٦) البنداري، المصدر السابق، ص ١٨٧-١٨٨.

الدين برد البضائع والأموال، وإطلاق الأسرى من التجار والجنود فرفض؛ فأهدر صلاح الدين دمه، وتحقق ذلك في حطين(٨٧).

ونجد في المصادر الإسلامية ما يشير إلى أن أرناط كان يهدف إلى نبش قبر الرسول ﷺ، ونقل جسده الطاهر إلى الكرك، وفرض ضريبة على كل مسلم يأتي لزيارته(٨٨). وهذا هدف اقتصادي أيضا، ولكونه تعلق بأمر مقدس، فقد كان من العسير فصل الهدف الديني عن الاقتصادي.

ثانيا: الغزو البحري

أشرنا إلى أن بلدوين الأول قد استولى سنة ١١١٦م (٥١٠هـ)، على العقبة وبنى فيها وفي جزيرة فرعون قلعتين؛ مكنتا الفرنج من الهيمنة على صحراء الأردن وجنوب البحر الميت. وظل هذا الميناء بأيدي الصليبيين يؤدي وظيفته بحماية السواحل الصليبية من السفن الإسلامية، دون أن يستخدم لأغراض بحرية إلى ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١١٧٠م، حيث خرج إليها صلاح الدين لحماية قافلة قدمت من دمشق فيها أهله من الفرنج في الكرك وأيلة "العقبة"، وعقد العزم على فتح أيلة: " وكانت بأيلة قلعة في البحر- كما ذكر العماد الأصفهاني- قد حصنها أهل الكفر فعمل لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وشحنها بالعدد والعُدد وحصنها بأهل الجلاد والجلد"(٨٩).

ويبدو أن هذه الحامية التي تمركزت في قلعة جزيرة فرعون قد قيدت من تحركات أرناط، فعانى كما قال العماد الأصفهاني: "من

(٨٧) نفسه، ص ٢٨٩

(٨٨) العلمي (مجير الدين الحنبلي، ت ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، بيروت،١٩٧٣م، جـ ١ص٣١٦ .

(٨٩) البنداري، المرجع المذكور، ص٥٧ .

نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة أيلة وهي في وسط البحر لا سبيل إليها لأهل الكفر"(٩٠). وهددت هذه الحامية مصالح الفرنج، وأضعفت هيمنتهم على درب الحج المصري؛ فخطط أرناط لاستعادة جزيرة فرعون، ثم المضي في البحر الأحمر نحو أهدافه، ويجدر بنا أن نتصور جغرافيا مسرح عمليات القرصنة التي قام بها هذا الصليبي. فالمسافة بين الكرك والعقبة ١٢٥ ميلا، وهناك قلعتان في العقبة: برية على بعد ٥٠ مترا جنوب البلدة، وبحرية في جزيرة فرعون على ثمانية أميال من الشاطئ، وهي جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ٢٥٠ × ٦٠ مترا وبينها وبين ساحل سيناء الجنوبية حوالي ٢٥٠ مترا. أما خليج العقبة فطوله من رأس محمد إلى قلعة العقبة نحو مئة ميل وعرضه يتراوح من ٧ إلى ١٤ ميلا. وفي مدخله تقع جزيرتا تيران وصنافر، ويقع الممر الصالح للملاحة بين ساحل سيناء وجزيرة تيران بعرض ٣ أميال(٩١).

لم يكن للصليبيين سفن في البحر الأحمر؛ لأنه لم يتوافر لديهم وسائل وظروف بناء السفن على ساحل هذا البحر، وكان يمثل بنظرهم "بحيرة إسلامية" لا ينبغي المغامرة فيه. غير أن أرناط قرر المخاطرة فقام - كما يقول المؤرخ الفرنسي ري (Rey) - في شهر المحرم ٥٧٨هـ/مايو ١١٨٢م، بحمل أجزاء من سفنه على جمال البدو من عسقلان إلى أيلة، ثم أعيد تركيبها، في خمس قطع حربية، وواحدة كبيرة. وقد اختلف المؤرخون حول مكان بناء السفن فقيل: إنه عسقلان، وقال ابن الأثير: إن أرناط عمل أسطولا وفرغ منه

لم يكن للصليبيين سفن في البحر الأحمر؛ لأنه لم يتوافر لديهم وسائل وظروف بناء السفن على ساحل هذا البحر

(٩٠) البنداري، المصدر السابق، ص ٢١٢ .

(٩١) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء، ص ١٦. Eydoux, Op.Cit ,p. 136 . براور، المرجع السابق، ص ٧٤ .

بالكرك[٩٢]، وهذا ما ذهب إليه المؤرخ ميشو (Michaud) أن السفن بنيت في الكرك ثم حملت على ظهور الإبل إلى خليج العقبة. ومن المرجح أن بناء الأسطول تم في البحر الميت، ثم جمع في الكرك، ثم نقل منها على ظهور الإبل مسافة ١٢٥ كم بحراسة ثلاثمئة بدوي، حيث أعيد بناؤه على ساحل خليج العقبة[٩٣].

قسم أرناط أسطوله إلى مجموعتين: الأولى تحت قيادته واتجه بها إلى جزيرة فرعون لاحتلالها، وترك قطعا منها تحاصر حامية أيلة، والثانية سار بها جنوبا لغزو الحجاز. وأصبح الصليبيون صيف عام ١١٨٢م (٥٧٨هـ)، سادة البحر الأحمر بلا منازع. وأشار "ري" إلى أن أرناط أصبح مسيطرا على البحر إلى عدن مدة عام، في خمس سفن كبيرة اثنتان منها تستوعبان ألفي بحار، وعدد من السفن الخفيفة وشحنها بالمقاتلة. وكانت السفن الصليبية إما سفنا حربية أو سفنا لنقل الجنود، فالسفن الكبيرة يبلغ طولها من ٣٠ إلى ٤٠ مترا، وعرضها ستة أمتار. وحاملة الجنود تنقل حوالي مئة جندي. مما يعني أن هذا الأسطول كان كبيرا، وأن عدد البحارة كان كثيرا، ولعل بعض هذه القطع قد بنيت في البحر الميت ثم نقلت إلى الكرك فالعقبة. أما المسلمون فقد تأخروا في ردهم؛ فلم يكن لديهم سفن حربية في البحر الأحمر، فاضطروا إلى شحن أسطولهم في شوال ٥٨٧هـ / يناير ١١٨٣م إلى بحر القلزم بقيادة حسام الدين لؤلؤ[٩٤]، الذي التف على جزيرة سيناء، ودخل خليج العقبة، وأغرق في ذي القعدة/ مارس من العام نفسه سفن العدو في جزيرة فرعون.

(٩٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١، ص ٤٩٠ .

(93) Michaud, Histoire des croisades T.II.p.255.؛ Rey(E.), Les Op.Cit,p.155-156 .

(٩٤) هو لؤلؤ الحاجب العادلي، من كبار دولة صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل. كان أرمنيا من غلمان القصر، وأصبح مقدم الأسطول، ثم ترك الخدمة عندما هرم، توفي في صفر سنة ٥٩٨هـ. الذهبي (الحافظ أبو عبد الله ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، جـ ٣، ص١٢٣-١٢٤ .

واستمر البحث عن البقية شهرين، وفي شهر أبريل قبض عليهم في الحوراء شمال ينبع. وتمكن أرناط وثلة معه من العودة برا إلى الكرك(٩٥). وكان عدد الأسرى ١٧٠ أسيرا، سيق بعضهم إلى الإسكندرية في ذي القعدة ٥٧٨هـ/ مارس ١١٨٣م، وقتل بعضهم في منى في ١٠ من ذي الحجة ١٦/ أبريل من العام نفسه(٩٦).

وإذا كانت بداية العمليات العسكرية الصليبية في البحر الأحمر في شهر مايو ١١٨٢م (المحرم ٥٧٨هـ)، فقد تأخر الرد الإسلامي إلى شوال ٥٧٨هـ / يناير ١١٨٣م، ولعل السبب يعود إلى أن الأيوبيين لا يملكون - في هذه الفترة - أسطولا حربيا، بل سفنا تجارية وسفنا أخرى لنقل الحجاج بين جدة وعيذاب، بينما كانت أساطيلهم الحربية تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ميدان الصراع مع البحرية الصليبية والأوروبية. ويعود تأخر الرد الإسلامي إلى أن غزو أرناط كان مفاجأة للقيادة الأيوبية، وأمرا مستبعدا ولم يعهد في هذا البحر - كما قال العماد الأصفهاني - "طروق الكفار"(٩٧)، وأن وصول الخبر، وصدور الأوامر، وبناء الأسطول ونقله كل هذا يحتاج إلى وقت ليس بالقصير، يضاف إلى كل ذلك أن صلاح الدين كان - أثناء هذه الحملة - مشغولا بشأن داخلي، وهو القضاء على تمرد عماد الدين زنكي بن مودود أتابك حلب (٥٦٦-٥٩٤هـ/١١٧٠-١١٩٧م) الذي اضطر إلى مغادرة حلب في ١٢ يونيو سنة ١١٨٣م، وتسلمها منه صلاح الدين(٩٨).

---

(٩٥) Rey(E.), Op.Cit.p.156-158. فردريك ج.، تاريخ شرقي الأردن ترجمة بهاء الدين طوقان، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٣٥م، ص١٣٩ . جيمس رستون، مقاتلون في سبيل الله، ترجمة رضوان السيد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٥١ .

(٩٦) أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ٥٩٦-٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، د.ت، جـ٢،ص٣٧ . ابن جبير، المصدر السابق، ص ٥٧ .

(٩٧) البنداري، المصدر السابق، ص ٢١٣

(٩٨) رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ص٧٠٠-٧٠٣ .

وقد ذهب المؤرخون في تحديد أهداف هذه الحملة مذاهب شتى، فبعضهم ركز على الهدف الديني الذي أشار إليه صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م)[٩٩] حيث ذكر أن الأسطول الفرنجي انقسم إلى فريقين: فريق حاصر قلعة "أيلة" لضمان خط الرجعة، والآخر قصد " سواحل الحجاز واليمن، فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن[١٠٠]، ويلم بسواحل الحجاز، فيستبيح - والعياذ بالله - المحارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم"[١٠١].

ويفهم من هذا النص ثلاثة أهداف: احتلال قلعة أيلة "جزيرة فرعون"، ثم احتلال سواحل الحجاز، والاعتداء على المدينتين المقدستين، والهدف الأخير اقتصادي وهو سلب سفن الحجاج؛ لأن الحملة بدأت بعد موسم حج عام ٥٧٧هـ، وانتهت قبيل الموسم التالي عام ٥٧٨هـ، وكذا احتلال عدن وأسر تجارها.

أما ابن جبير الذي شاهد في الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٧٨ هـ/ ٢٦ مارس ١١٨٣م، قتل عدد من القراصنة الفرنج اشتركوا مع أرناط في هذا الغزو، فقد أكد

---

(٩٩) هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيئ بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي. بويع بالخلافة غرة ذي القعدة عام ٥٧٥هـ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ وهو أطول بني العباس خلافة. (الذهبي، المصدر السابق، جـ ٣، ص١٨٥-١٨٦) .

(١٠٠) لعل العماد الأصفهاني قصد بأكارم عدن، تجار" الكارم أو الكارمية" الذين قاموا بدور مهم في التبادل التجاري بين الهند ومصر واحتكروا منذ العصر الفاطمي تجارة التوابل، انظر: القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. تعليق محمد شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، جـ٣ ص ٤٦٤ .

(١٠١) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، د.م، د.ت، جـ ٣،ص٣١٧-٣١٨ . أبو شامة، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٧.

الهدف الديني من هذه العملية بقوله: " كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ، وإخراجه من الضريح المقدس"(١٠٢).

وانفرد ابن العبري (ت ١٢٨٦م/٦٨٥هـ) برأي مفاده أن هذه القرصنة الفرنجية كانت ردا على قيام صلاح الدين الأيوبي بالاستيلاء على السفن الصليبية التي دخلت ميناء دمياط وقت هدنة معه "لكن العرب غدروا بهم واعتقلوا ألفين وخمسمئة من تجارهم وملاحيهم محتجين بانتهاء مدة الهدنة"(١٠٣). ولكن ابن العبري فاته أن هذه السفينة جنحت إلى شاطئ دمياط سنة ٥٧٧هـ بسبب الريح - كما ذكر العماد الأصفهاني - وأنها سفينة كبيرة اسمها "يولية تحتوي على ألفين وخمسمئة نفس من رجال القوم وأبطالهم وهم على قصد زيارة القدس"، وغرقت قبالة ثغر دمياط وقام المسلمون بأسر الناجين وعددهم ألف وستمئة وستة وسبعون نفسا(١٠٤). وكانت هذه الحادثة متزامنة مع استيلاء أرناط على القافلة الإسلامية في طريق تيما عام ٥٧٧هـ/١١٨١م، فعرض صلاح الدين على بلدوين الرابع (Baudouin IV) ملك مملكة بيت المقدس (١١٧٤-١١٨٥م)(١٠٥) استعداده لإطلاق سراح الزوار الصليبيين مقابل قيام أرناط برد ما سلبه من القافلة التجارية، فرفض أرناط ذلك(١٠٦).

(١٠٢) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٥٧ .

(١٠٣) ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين ت ١٢٨٦م)، تاريخ الزمان، ترجمة إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٩٨ .

(١٠٤) البنداري، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(١٠٥) تولى بلدوين الرابع عرش مملكة بيت المقدس بعد موت أبيه عموري الأول في ١١ يوليو ١١٧٤م (١٠/١٢/٥٦٩هـ)، وكان في الثالثة عشرة من عمره، ومصابا بمرض الجذام، فسمي بلدوين المجذوم، وأصبحت الوصاية عليه مثار نزاع بين البارونات. وعندما بلغ السن القانوني لم يستطع مواجهة الظروف الداخلية والخارجية، ولم يلبث أن مات عام ١١٨٥م (٥٨١هـ). (سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٨٦، جـ ٢ ص٥٧٩).

(١٠٦) رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٦٩٧ .

ومن الباحثين من رأى أن دوافع هذه الحملة سياسية واقتصادية أكثر منها دينية؛ لأنها استهدفت خطوط التجارة العربية، والبضائع التي يحملها الحجاج، وهذا ما يفسر تنقل الأسطول الصليبي بين الشاطئين الآسيوي والأفريقي للبحر الأحمر بحثا عن غنائم(١٠٧). ومما يعزز هذا الرأي تمادي أرناط في حملته إلى اليمن دون أن يثبت وصوله إلى مكة أو المدينة - كما ظن عزيز سوريال!(١٠٨). وتوقيته الغزو بأشهر الحج حيث توجد سفن كثيرة تحمل الحجاج وبضائعهم؛ لذلك بدأ بعيذاب: " فأخذوا فيها مركبا- كما أخبر ابن جبير- كان يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة"(١٠٩).

وكل هذه الجرائم تدل - من جهة - على غايات اقتصادية تتمثل بسلب أكبر قدر من البضائع والأموال التي تحتاجها خزينة مملكة بيت المقدس التي تعاني من أزمة خانقة كانت وراء قيام أرناط بحملته كما ذكر براور(١١٠). كما أن هذه الحملة تحقق - من جهة أخرى - حصارا اقتصاديا على مصر من خلال قطع الطريق البري الذي يربطها بالشام والحجاز، وقطع الطريق البحري الذي يربطها بسواحل الجزيرة العربية واليمن مركز التجارة الكارمية. و ضرب الاقتصاد المصري بتحويل التجارة إلى العقبة، ومنها إلى الموانئ الصليبية(١١١).

(١٠٧) عبد الله بن عبد المحسن السلطان، المرجع السابق، ص ٤٨ .

(١٠٨) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ط٢، د.ت، ص ٦٤-٦٥ .

(١٠٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٥٧ .

(110) Prawer,Op.Cit,T.II,p.617.

(١١١) عطية القوصي، المرجع السابق، ص١٥٣- ١٥٥ .

لقد بـاء هذا المشروع بالفشل مثلما حدث لمشروع جاللوس عام ٢٤ ق.م. ولعلنا نناقش العوامل التي كانت وراء فشل الغزو الفرنجي للبحـر الأحمر، وهي أسباب تتعلق بالزمان والمكان والوسيلة. فأما الزمان فكان في أشهر الحج حيث المشاعر الدينية تغمر المسلمين حجاجا وغير حجاج، وأي حركة مريبة كحركة أرناط ستثير ضدها النخوة الإسلامية، لا سيما وأن التفسير الإسلامي لهذا الغزو كان احتلال مكة والمدينة. وإذا كان أرناط قد اختار الإبحار صيفا؛ ليستفيد من الرياح الموسمية التي تهب صيفا في البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب، إلا أن توقفه في عيذاب كان خطأ استراتيجيا ولو سار مباشرة إلى اليمن لتغير مسار حملته، ولبلغها في غضون شهرين(١١٢).

أما المكان فيتمثل في خليج العقبة وميناء عيذاب، وساحل الجزيرة العربية من عدن إلى رابغ فالحوراء، وهي أهداف متباعدة مما يعني عدم وضع خطة مرتبة، الأمر الذي جعل السفن الصليبية تتناثر يمنة ويسرة، وتقع بأيدي البحارة المسلمين. صحيح أن أرناط كان مجبرا على ترك قطعتين من أسطوله لمحاصرة قلعة أيلة خوفا من قيام حاميتها بتعقبه أو إخبار القيادة الإسلامية في القاهرة، ولكن بدايته من عيذاب يدل على تخبطه في اختيار الأهداف العسكرية، وربما جهله بجغرافية البحر الأحمر.

أما الوسيلة وهي سفن حربية مسلحة، وأخرى ناقلة للجنود. وهي وإن كانت أسرع من نظيرتها الإسلامية؛ لأنها تسير بالمجاديف بينما تسير الإسلامية بالشراع إلا أنها قد ثبتت بمسامير، وهذا النوع لا يصلح للملاحة في البحر الأحمر لعدم امتصاصها الصدمات بالشعاب المرجانية، في حين كانت السفن الإسلامية التي تعمل في

(١١٢) انظر حركة الرياح في البحر الأحمر، الزيلعي، ص١٧٣ . سيد أحمد الناصري، الرومان والبحر الأحمر، ص ١٨ .

البحر الأحمر تشد ألواحها بحبال، بخلاف سفن البحر الأبيض المتوسط التي تدق بمسامير، والسبب في ذلك أن الحبال تتعامل بمرونة مع شعاب البحر الأحمر[١١٣].

لقد كان الرد الإسلامي برا أكثر إيلاما وشمولية من الرد البحري، فقد عزم صلاح الدين على القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية التي لم تلتزم بعهودها، ولم تكبح جماح فرسانها المغامرين مثل رونو دو شاتيون، فكانت حطين التي حدثت نهار يوم الاثنين ٢٥ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ/ ٣ يوليو ١١٨٧م، وتم فيها القضاء المبرم على الآلة العسكرية الصليبية، وقتل وأسر عدد كبير منهم، من بينهم أرناط الذي تولى صلاح الدين الأيوبي قتله بيده وفاء بنذره. و كان من ضمن الأسرى اتيانيت زوجة أرناط، أطلق سراحها بفدية إلا أنها التمست من صلاح الدين إطلاق سراح ابنها همفري Toron de Humfroi III سيد تبنين (ت ١١٩٨م) فوافق شرط تسليم حصني الشوبك والكرك، وعندما رفضت حاميتا الحصنين التسليم أعادت اتيانيت ابنها إلى صلاح الدين فأعجب بصنيعها وأطلق ابنها بعد شهور. وحاصر الجيش الإسلامي حصن الكرك، ورفضت الفرنج الاستسلام، واضطروا إلى بيع أبنائهم ونسائهم على البدو مقابل الحصول على مؤونة. وأخيرًا استسلم من بداخل الحصن سنة ٥٨٤هـ/ أواخر ١١٨٨م[١١٤]. وكان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا حاصروها مدة طويلة، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم، وأكلوا دوابهم؛ ففاوضوا الملك العادل[١١٥] أخا صلاح الدين الذي كان

---

(١١٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٥٧. عطية القوصي، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

(١١٤) رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٥٧-٧٥٨ .

(١١٥) الملك العادل سيف الدين (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م) هو محمد بن أيوب بن شاذي، أخو صلاح الدين ولد في دمشق وقيل في بعلبك عام ٥٤٠ هـ/١١٤٥م، ولاه أخوه حلب عام ٥٧٩هـ، ثم الكرك، ثم تولى سلطنة مصر عام ٥٩٦هـ وضم إليها الشام، توفي بدمشق عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق،جـ٦، ص ٤٧).

مسؤولا عن نواحي الكرك "يبذلون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان" فتسلم منهم القلعة، وما حولها من حصون "وفرغ القلب من تلك الناحية، وألقى الإسلام جرانه، وأمنت قلوب من ذلك السقع من البلاد، كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين، ومن شرهم مشفقين" وذلك في رمضان سنة ٥٨٤هـ(١١٦).

نتائج البحث:

من خلال استقراء النصوص التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه، وعبر مناقشة الآراء التي أبداها المؤرخون المحدثون حول قضايا هذا البحث، يتجلى أمور نوجزها في الآتي:

١ - برزت أهمية البحر الأحمر في العصور القديمة، بصفته مدى حيويا تصارعت حوله القوى المحلية، والقوى الأوروبية، واقترن ذلك في استعمار مصر وفلسطين، ومحاولة احتلال اليمن.

٢ - وفي العصور الوسطى المبكرة أضيف عامل ديني إلى العوامل الاقتصادية والسياسية، تمثل بالتحالف البيزنطي - الحبشي بغية احتكار تجارة الهند، وحرمان العرب والفرس منها تحت شعار نشر النصرانية.

٣ - وفي عصر الدولة الإسلامية تمت السيطرة على البحر الأحمر، واتخاذه وسيلة اتصال بين الحجاز ومصر، وطريقا للحجاج المغاربة، الأمر الذي حول هذا البحر إلى "بحيرة إسلامية" لا يخطر ببال أوروبي الإبحار فيه.

٤ - وفي عصر الحروب الصليبية أخذ التنافس على البحر الأحمر أبعادا سياسية وعسكرية واقتصادية امتدادًا للصراع بين مصر ومملكة بيت المقدس. وقد أثبتت الدراسة آفاق هذه السياسة،

(١١٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١٢، ص ٢٠-٢١ . أبو شامة، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٣٤.

مما يعني وجود خطة مبيتة لتطويق مصر، والارتباط بالحبشة، واحتلال السواحل العربية إلى عدن. وهذا الهاجس الأوروبي قديم، تجدد مع الصليبيين، وحققه الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث.

٥ - أسفرت السياسة الفرنجية تجاه منطقة البحر الأحمر عن مزج الأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية بالأهداف الدينية استرضاء لرجال الدين، واستثارة لحقد المنظمات الإرهابية على معقل العقيدة الإسلامية مكة والمدينة. وتأكد ذلك في محاولة أرناط الوصول إلى قبر الرسول ﷺ. ويبدو أن رد الفعل الإسلامي آنذاك صار درسا للاستعمار الحديث الذي لم يجرؤ على المساس بالحرمين الشريفين.

خريطة (١)

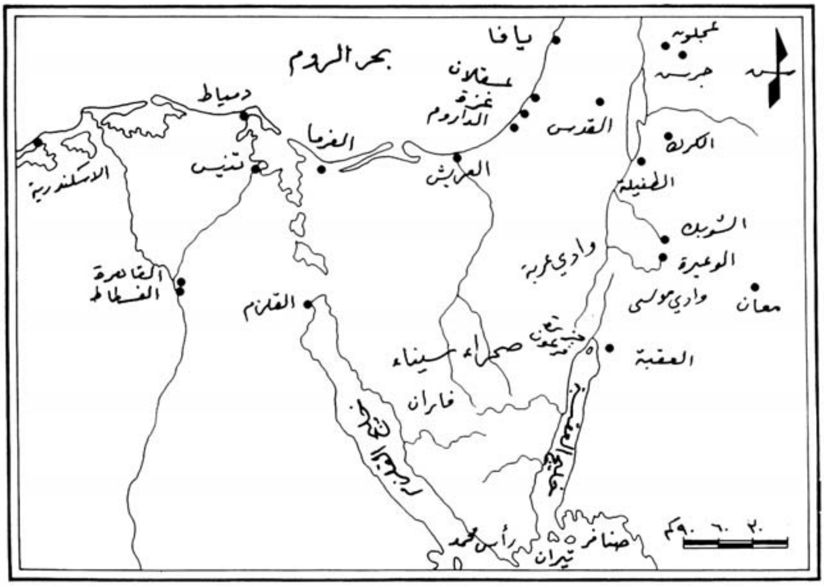

"خليج العقبة ومنطقة شرق الأردن ووادي موسى ووادي عربة"

معربة ومستوحاة من كتاب:

Grousset, Histoire des croisades,T.V,p.97.

خريطة (٢)

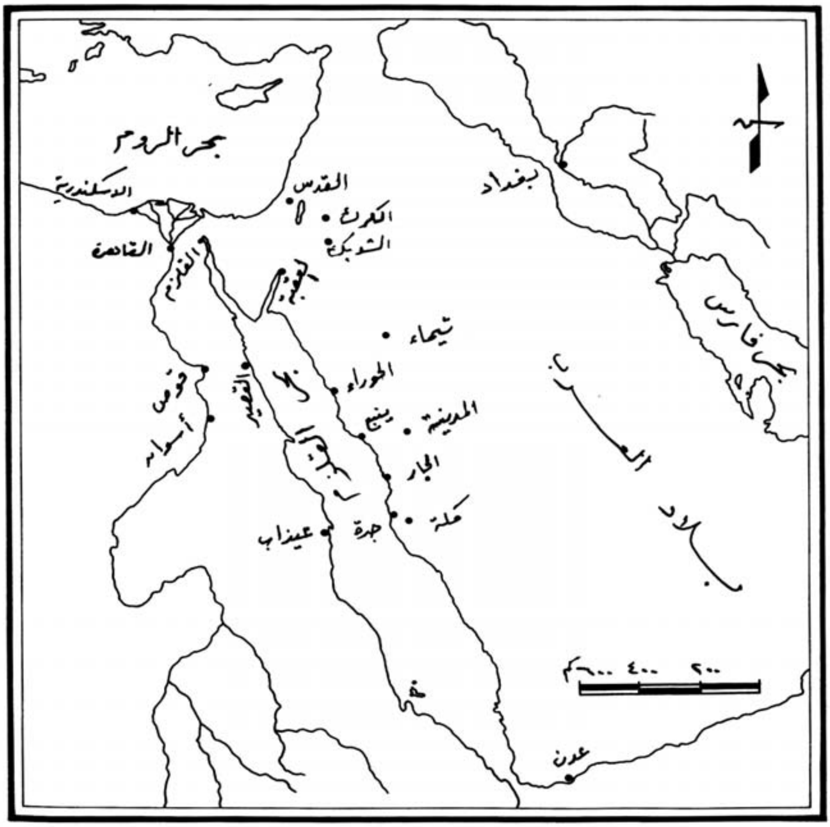

"موانئ البحر الأحمر زمن الغزو الصليبي"

خريطة معربة ومستوحاة من كتاب:

Grousset, OP.Cit,T.V,p.33